

إنذار كاذب من الإسلام !

فى الغرب أصوات كثيرة تتحدث عن الإسلام باحترام، فى مواجهة العداء للإسلام والمسلمين. بعض هذه الأصوات لرجال الحكم والسياسة، وبعضها لكتاب ومفكرين ورجال دين، ومعظمها من مواطنين يحملون جنسيات دول غربية تعرفوا إلى الإسلام فوجدوا فيه ما كانوا يبحثون عنه من مبادئ وقيم، وعقيدة تخاطب العقل كما تمس القلب وتسمو بالروح.

وقد كان رئيس الوزراء البريطانى أقوى الأصوات التى ارتفعت بالدعوة إلى تفهم حقيقة الإسلام ومعرفة ما ينسب إليه من أكاذيب شوهدت صورته فى الأذهان وفى الإعلام فى الغرب. وفى مجلس العموم تليت رسالة من رئيس الوزراء بمناسبة بدء أسبوع الوعى الإسلامى فى نوفمبر ٢٠٠١ وقال فيها: إن الأحداث الفظيعة التى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (بتدمير برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك) جعلت التعامل مع الجهل بهذا الدين العظيم أمرا مهما، وجعلت زيادة فهم التعاليم الحقيقية للإسلام - بحكمته ورحمته - بين المسلمين وغير المسلمين أكثر أهمية من أى وقت مضى. فقد أجمع المسلمون على أن مثل هذه الأعمال تخالف المبادئ الحقيقية للدين الإسلامى، كما أنه من الضرورى أن نتذكر بأن كثيرا من المسلمين فقدوا حياتهم فى هذه الاعتداءات. ولا يمكن أن نحكم على الدين الإسلامى الذى يتسم بالسلام والتسمح بأفعال مجموعة من الارهابيين.

وأبدى رئيس الوزراء البريطانى فى كلمته تفهمه لمشاعر القلق لدى المسلمين فى بريطانيا قائلا: إننى على يقين من أن المسلمين البريطانيين قلقون فى هذه الأوقات العصبية من أن يتعرضوا لمزيد من الاعتداءات بسبب عرقى أو بسبب الكراهية، ولذلك طلبت حماية المسلمين المعرضين للتهديد أو الهجوم وأن يكون لذلك أولوية مطلقة، ومن المهم أن نكون يقظين تجاه عناصر المجتمع الذين يتصيدون الفرصة لإثارة التوتر فى مجتمعاتنا، وسوف نقف بحزم ضدهم.

وكانت هذه الصيحة من رئيس الوزراء ضرورية فى ذلك الوقت، لأن المسلمين فى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وغيرها من دول الغرب تحملوا الكثير من الإهانات وتعرضوا

لاعتداءات كثيرة وصلت إلى حد الطرد من الوظائف، والتحرش بهم في الأماكن العامة، والاعتداء على بيوتهم ومحلاتهم ومساجدهم.



وفي سياق الجهد الحكومي لإعادة الثقة في الإسلام والمسلمين قام وزير الخارجية في ذلك الوقت- روبين كوك - هو الآخر بزيارة المركز الإسلامي الإسماعيلي وألقى كلمة بعنوان: (حوار جديد مع الإسلام) قال فيها: إن ثقافة الغرب ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هي إسلامية أيضا. فالعلوم والفلسفة والفنون الإسلامية أسهمت في تكييف نمونا كأفراد، وأثرت في تفكيرنا وأسلوب حياتنا. لذلك فإن ثقافتنا مدينة للإسلام فهو دين يجدر بالغرب ألا ينساه. ولقد سمحنا للأيام بأن تبعدنا عن بعضنا البعض، وسمحنا لسوء الفهم وعدم الثقة بالتفرقة بين الغرب وبين الإسلام. فيجب ألا ندع سوء التفاهم بيننا يستمر أكثر من ذلك، وألا نسمح بأن تحكم ثقافتان عظيمتان حكما جائرا على بعضهما بهذه الصورة المؤسفة. ثم إنه ليس لدينا أي خيار أو مفر من العيش معا في عالم اليوم، والعمل معا بسلام ووثاق. فمشاكل الشباب في الغرب هي مشاكلهم في العالم الإسلامي في مواجهة خطر المخدرات والجريمة والانحراف.

وأعلن وزير الخارجية رفضه لنظرية صراع الحضارات، وقال: إن البعض يقول: إن الغرب بحاجة إلى عدو، ومادامت الحرب الباردة قد انتهت فإن الإسلام سيأخذ مكان الاتحاد السوفيتي القديم ويصبح هو العدو. ويقولون: إن صراع الحضارات قادم لا مفر منه، وأنا أقول: إنهم مخطئون، فنحن لسنا في حاجة إلى الإسلام كعدو، بل نحن في حاجة إليه كصديق. قد تكون حضارتنا مختلفة، والديانات أيضا مختلفة، ولكن ذلك لا يعني أننا لن نستطيع أن نتعايش معا، ولكن علينا أن نتعاون معا لإفshal هذه النبوءة. والإسلام يدعو إلى تعاون الشعوب المختلفة، كما في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ﴾ (الحجرات ١٣).

وبعد أن استشهد وزير الخارجية البريطاني بهذه الآية الكريمة طالب مفكرى الغرب بأن يتفهموا معناها وأن يعملوا على تحسين التفاهم بين الغرب والإسلام، والتخلص من مشاعر عدم الثقة ومن الصور الخاطئة والمشوهة في كل جانب عن الآخر، وقال: إن المشكلة أن أبناء الغرب وأبناء الإسلام يرى كل منهما الآخر من خلال تلك الصورة السطحية والمشوهة والخطيرة الشائعة بغير أساس من الحقيقة. فالإسلام يرى الغرب على أنه مادي يفتقد الاحترام للقيم الروحية، وعلى أنه عدو للإسلام ولديه نوايا لتقويض المجتمعات الإسلامية وفرض قيم الغرب عليها. والغرب من ناحيته يعتبر الإسلام قرينا للتطرف، وكثير من وسائل الإعلام في الغرب لا ترى ما في الإسلام

من ثقافة غنية ومتنوعة تدعمها ديانة من أعظم الديانات. بل يتحدثون عنه على أنه الإرهاب الذى تقوم به قلة باسم الإسلام. وكلتا النظرتين فى غير محلهما. وهناك الكثير مما يمكن أن يتعلمه من بعضنا البعض.



ولأن روبين كوك من كبار المثقفين البريطانيين - وكان بالإضافة إلى ذلك حريصا بحكم منصبه على حصار حالة العداء للإسلام التى تتزايد فى الغرب - فقد أفاض فى حديثه عن عطاء الإسلام ودوره فى الحضارة الإنسانية، وكرر أكثر من مرة أن الغرب مدين للإسلام بالنشء الكثير. وأن الإسلام وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة مهمة وكبيرة فى الحضارة الغربية، وأن هناك الكثير من أسس الحضارة الغربية يعود الفضل فيه إلى العلوم الإسلامية. وقد تفاعلت الثقافة الإسلامية مع ثقافة الغرب عبر التاريخ والأجيال، ويجب أن يستمر هذا التفاعل، لأن مستقبل كل من الغرب والعالم الإسلامى يرتبط كل منهما بالآخر.

لكن روبين كوك اعترف فى نفس الوقت بأن أهم التحديات التى تواجه صانعى السياسة فى الغرب هى كيفية إقامة علاقة إيجابية مع العالم الإسلامى، وإزالة العقبات الرئيسية التى تعكر الجو بين الجانبين. وهذا يقتضى ألا يكون الحوار مقصورا على الحكومات وحدها، وإنما يكون الحوار بين الشعوب أيضا، فيلتقى رجال الدين والمعلمون، والمثقفون، وأساتذة الجامعات، والفنانون من الجانبين، ويستمر الحوار بينهم، وسوف نكسب الكثير من هذه اللقاءات ومن التفاهم المشترك، وأننا سوف نخسر الكثير إذا لم نفعل ذلك. وفى بريطانيا مجتمع مسلم قوامه مليون ونصف المليون، وأكثر من ٩٠٠ مسجد، وأصبح من حق المدارس الإسلامية أن تتلقى الدعم المالى من الدولة.



وفى السعى إلى الحوار مع الآخر شهدت مدينة الإسكندرية فى يناير ٢٠٠٢ حدثا مهما. فقد التقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر د. محمد سيد طنطاوى، ورأس الكنيسة الانجليكانية كبير أساقفة كانتربرى فى بريطانيا د. جورج كيرى، وكبير حاخامات إسرائيل الياهو دورون. وتوصل حوارهم إلى إصدار (إعلان الإسكندرية الأول للقيادات الدينية) دعا فيه إلى إحلال السلام والعدل فى الأراضى المقدسة، والتزامهم بالدعوة إلى إنهاء العنف، ووقف سفك الدماء، لأن ذلك يتنافى مع كرامة الإنسان وحقه فى الحياة. وأن العنف شر ينبغى أن تتصدى له الشعوب المؤمنة.

وكانت دعوة زعماء الديانات الثلاث كما يلى :

● الدعوة إلى الحفاظ على قدسية المقدسات والأراضى المقدسة لدى الديانات الثلاث وعدم تدنيسها بسفك الدماء أو بالاعتداء عليها، وضمان حرية العبادة فيها وزيارتها.

● دعوة القادة السياسيين للشعبين الفلسطينيين والإسرائيليين إلى أن يعملوا من أجل التوصل إلى حل عادل ودائم بناء على ما جاء به الأنبياء في الكتب المقدسة. ومواصلة السعى من أجل السلام العادل والمصالحة في القدس والأراضي المقدسة لصالح جميع الشعوب.

ولا شك أن هذا اللقاء والإعلان الذي أعقبه يمثلان خطوة على طريق التفهم، ولكن الأمور ليست بمثل هذه البساطة، فإن نداءات زعماء الأديان لم توقف الحكومة الإسرائيلية عن سياسة القتل والتدمير والسجن والعزل التي تفرضها على الشعب الفلسطيني. مما يعني أن النوايا الحسنة لدى رجال الدين لا تعنى شيئاً له تأثير على رجال الحكم والسياسة.



وبعيداً عن رجال السياسة والدين هناك كثيرون في الغرب انجذبوا للإسلام وأحسنوا فهمه، والصحف مليئة بالأحاديث مع نماذج يمكن أن نشير إلى بعضها لتتعرف على رؤيتهم للإسلام، وهي رؤية متأثرة بالعقلية وبالثقافة الغربية.

فالكاتب الأمريكي إيان ويليامز في مقال له بعنوان (المسلمون في أمريكا: القوة الصاعدة) يصور فيه كيف يواجه المسلمون في أمريكا مشاكل يمكن أن تنفجر في أية لحظة، ويدافع عن المسلمين لأنهم يجدون معاملة غير عادلة، فالإعلام يهاجمهم، ومكتب التحقيقات الفيدرالي يتعقبهم بينما يسكت عن المتطرفين اليهود الذين يتدربون على استخدام السلاح علناً في معسكرات في الشرق الأمريكي مثل جيش الدفاع اليهودي الذي أسسه الحاخام المتطرف ماثير كاهانا. كما أن تعامل الإعلام الأمريكي مع الإسلام والمسلمين يتميز بالسطحية والرغبة في توجيه الاتهام، وهناك من يشير إلى وجود ١٦٠ ألف مسلم في السجون الأمريكية، وفي نفس الوقت فإن التقديرات تؤكد أن ٢٥ ألف شخص يعتقدون الإسلام كل سنة في الولايات المتحدة.

ويقول إيان ويليامز: إن الأمريكيين في نيويورك يتوقفون عندما يسمعون صوت المؤذن، ويشاهدون المسلمين وهم يتوافدون إلى المسجد، وسانقو سيارات الأجرة المسلمون يتركون سياراتهم وينزلون للحاق بالصلاة، ويبدو المشهد مثيراً، فالمسلمون من بلاد وأجناس مختلفة، عرب.. وهنود.. وأمريكيون.. وأتراك.. وألبان.. الخ. ويتكلمون لغات مختلفة، ومع ذلك يقفون في صفوف منتظمة خلف الإمام لأداء الصلاة وهذا المشهد يتكرر في الأحياء والمدن الأمريكية. وفي أمريكا أكثر من ١٢٠٠ مسجد. وكان أول مسجد أنشئ في أمريكا هو مسجد (روس) في نورث داكوتا وقد هدم في سنة ١٩٧٦. ولا يزال الأمريكيون السود يذكرون إدوارد بلايدن الذي كان يقوم في عام ١٨٨٩ بجولات في ربوع الولايات المتحدة داعياً إلى الإسلام ومعلناً أن القرآن هو الذي يحمي الرجل الأسود من التبعية والعبودية، كما يذكرون والاس فارد الأمريكي الأسود الذي اعتنق الإسلام وأصبح اسمه

والاس محمد، وأسس حركة انضم إليها عشرات الآلاف باسم (أمة الإسلام) وخلفه اليجا بولى الذى اعتنق الإسلام هو الآخر واصبح اسمه اليجا محمد، وكانت دعوته قائمة على إحياء القومية السوداء وأن الجنس الأبيض هو الشيطان، بينما السود هم العنصر السامى، وبهذه الدعوة تجمع حوله كثير من السود الذين عانوا التمييز والإذلال من النظام العنصرى الأمريكى. واتسعت دائرة المسلمين عندما اعتنق مالكولم إكس الإسلام - وهو أيضا أمريكى أسود - وانتشرت دعوته فى المدن والأحياء الفقيرة حيث وجد كثير من السود فى الإسلام الاحترام والكرامة والمساواة وهى المبادئ التى يفتقدها المجتمع الأمريكى. وقد مات مالكولم مقتولا فى سنة ١٩٦٥ على يد منافسيه من أعضاء فى الجماعة. ثم تغيرت الأمور ابتداء من سنة ١٩٧٥ عندما تولى ابنه وارث الدين محمد زعامة الجماعة، وهو يجيد اللغة العربية ودرس القرآن، وبعد خمس سنوات حلت الجماعة نفسها واندمجت فى المجتمع الإسلامى السننى فى أمريكا الذى يضم السود والبيض.



ويقول إيان ويليامز: ليس هذا فقط هو ما يلفت نظر الأمريكيين ولكن يلفت نظرهم- ويثير دهشتهم أيضا- أن الإسلام مازال هو أسرع الأديان انتشارا فى أمريكا على الرغم من الحملات الإعلامية المنظمة التى تنفر الأمريكيين من الإسلام وتثير الخوف فى نفوسهم من المسلمين، ويقول إن تشويه صورة الإسلام بدأ يتصاعد عندما أعلن الرئيس جورج بوش (الأب) النظام العالمى الجديد الذى يعنى إحياء الحرب الباردة بتشجيع من إسرائيل. ويكشف ديفيد هوفمان مراسل صحيفة واشنطن بوست فى تل أبيب هذه الحقيقة بقوله: إن إسرائيل أقتعت الولايات المتحدة بأن المتطرفين الإسلاميين، وبرنامج التسليح الإيرانى هما أكبر خطرين على المصالح الأمريكية وعلى استقرار الشرق الأوسط. ويضيف هوفمان (وهو يهودى مؤيد لإسرائيل): (إن انهيار الاتحاد السوفيتى جعل إسرائيل هى الحصن المنيع ضد التطرف الإسلامى والأطماع الإقليمية الإيرانية. ومع انتهاء المظلة النووية السوفيتية فى الشرق الأوسط بدأت إيران والعراق ودول أخرى تسعى إلى امتلاك الرادع الخاص بها فى مواجهة الترسانة النووية الإسرائيلية. وتعمل إسرائيل على إقناع الإدارة الأمريكية ودول الغرب بأن هذا السعى إلى امتلاك الرادع «تهديد» وأن مقاومة الاحتلال الإسرائيلى «إرهاب»).

هذا التحليل لأوضاع المسلمين وصورة الإسلام فى الولايات المتحدة بقلم كاتب أمريكى يدل على أن الإسلام يجد دائما من يتحدث عنه بموضوعية واحترام فى مواجهة الحملات العدائية الطاغية فى الإعلام والجماعات ومراكز البحوث وحتى فى مراكز القرار الأمريكى.



ومن المثقفين الأمريكيين القلائل الذى أنصفوا الإسلام (مارلين بوث) وهى أستاذ بجامعة الينوى متخصصة فى التاريخ الثقافى والأدب العربى، وقامت بترجمة بعض الأعمال الأدبية العربية المعاصرة - تزور القاهرة كثيرا وتربطها علاقات بعدد من الكتاب والمثقفين. وفى حديث صحفى لها قالت: إن الاستشراق حقيقة له دور سياسى، وقام بخدمة الاستعمار، فهى علاقة (جاسوسية) على العالم العربى والإسلامى أكثر مما هى دراسة لحضارة ومجتمع بقصد المعرفة والتقارب. وهى تحذر العالم الإسلامى من الاستعمار الجديد وتقول: إن الاستعمار العسكرى انتهى، ولكنه موجود بشكل آخر ممثلا فى السيطرة الاقتصادية والغزو الثقافى.

اختارت مارلين بوث مجال الأدب لأنها رأت أن اطلاع الناس فى أمريكا على الأدب فى العالمين العربى والإسلامى هو أفضل وسيلة تجعل الأمريكيين أقدر على تفهم هذه المجتمعات على حقيقتها، وترد على حملات التشويه السائدة فى التلفزيون والصحافة التى يسيطر عليها اليهود. وهى ترى أن الأدب هو جسر التواصل بين الشعوب وأفضل وسيلة للرد على نظرية صراع الثقافات، وأن الجهل فى أمريكا بحقيقة العالم والمجتمعات الإسلامية يرجع إلى أن الأدب العربى تأخر كثيرا فى الوصول إلى أمريكا، فالأدب الصينى واليابانى وحتى الأدب الإفريقى وصل إلى أمريكا قبل الأدب العربى مع أنه أدب غنى بالأفكار والقيم التى تمثل انعكاسا لحقيقة الإسلام. والسبب فى تخوف الأمريكيين من الإسلام ما يحدث فى العالم، وما حدث فى أمريكا ذاتها فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من حوادث إرهابية. ويضاف إلى ذلك السبب الأساسى وهو تكوين الشعب الأمريكى؛ فهو شعب منغلق على نفسه، ولديه إحساس بأنه ليس فى حاجة إلى معرفة الآخرين وثقافتهم، فالأمريكيون لا يعرفون حقيقة موقف الإسلام من المرأة، وليس لديهم فكرة واضحة عن الحقوق التى قررها الإسلام لها، ومن خلال دراستى فإننى أقرر أن المرأة فى بعض البلاد العربية - وخاصة مصر - أفضل من نظيرتها فى أمريكا، ففى مصر تتساوى المرأة بالرجل فى المرتبات والمعاشات وهذا لا يحدث فى أمريكا، ونسبة النساء فى هيئات التدريس فى مصر أعلى من النسبة فى أمريكا، وفى مصر يعطى القانون للمرأة المطلقة الحاضنة الحق فى الاحتفاظ بمسكن الزوجية وهذا أمر لا مثيل له فى أمريكا، وقد حصلت المرأة مؤخرا على الحق فى الخلع وفى منح جنسيتها المصرية لأبنائها من زوج أجنبى. وبذلك لم يعد فى المجتمع المصرى أية تفرقة بين الرجل والمرأة، وهذا هو المجتمع الإسلامى الحق.



وفى روسيا عدد كبير من الباحثين فى اللغة العربية والدين الإسلامى وثقافة المجتمعات الإسلامية، واهتمام الباحثين فى روسيا يرجع أساسا إلى وجود الجمهوريات الإسلامية التى انفصلت عن الاتحاد السوفيتى ولا تزال بينها وبين روسيا علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية، ويزداد اهتمام الروس بالإسلام بسبب الحرب المستعرة فى الشيشان باسم الإسلام ضد الوجود

الروسي، ولذلك نجد معظم الباحثين الروس يهتمون بظاهرة الأصولية الإسلامية، ومن هؤلاء البروفيسور (فيتالي ناوومكين) مدير مركز الدراسات الاستراتيجية ونائب معهد الاستشراق في موسكو، وقد توصل من دراساته إلى أن ظاهرة الأصولية الإسلامية تعود قبل كل شيء إلى أسباب اجتماعية، وبدرجة أقل لأسباب سياسية. وهي تنفيس عن استياء الناس من أحوالهم ورد فعل على أحوال معيشتهم من ناحية، ورفضهم لمعايير الحضارة العالمية من ناحية أخرى، وهذان العاملان يدفعان الناس إلى البحث عن بديل فيجدون البديل في الماضي الذي يبدو لهم في صورة زاهية أقرب إلى الكمال. والغرب هو الذي أطلق مصطلح (الأصولية الإسلامية) وهو مصطلح لا ينطبق بدقة على الواقع، لأن الظاهرة السائدة في العالم الإسلامي والتي يسميها الغربيون (الأصولية الإسلامية) فيها جوانب إيجابية وجوانب سلبية. والغربيون يصورون الجانب السلبي وحده، ويغفلون عن الجانب الإيجابي. الجانب السلبي هو التطرف، والجانب الإيجابي هو العودة إلى الأصول والمبادئ في الدين الإسلامي والسير في عملية التحديث والتطوير انطلاقاً من هذه الأصول الإسلامية. فليس في الأمر رفض للتحديث في ذاته، ولكن الرفض موجه إلى فرض نموذج وحيد للتحديث هو النموذج الغربي، ففي مصر تسير عملية التحديث بخطوات واسعة مع التمسك بالقيم الإسلامية في نفس الوقت، وهم يتحصنون بالأصول الإسلامية لحماية أنفسهم من محاولات (التغريب)، فالأصولية في حقيقتها إذن ليست سوى نوع من المعارضة للحضارة الغربية المرتبطة في أذهان المسلمين بالاستغلال وبتاريخ مرير من الاستعمار والإنزال. فالأصوليون لا يرفضون العلم، والتكنولوجيا الحديثة. وقطاع منهم منفتح على الثقافة الغربية ولا يرفض الديمقراطية، لكن الغرب يبالغ في الحديث عن خطر الأصولية الإسلامية، بينما الخطر هو الإرهاب، ولا بد من التفرقة بين العودة إلى الأصول وبين استخدام العنف واستباحة الاعتداء على الآخرين، وظاهرة العنف هذه نجدها اليوم في كل الأديان وليس في الإسلام وحده، كما نجدها في المجتمعات التي لا تؤمن بالديانات الثلاث، كما في اليابان، والهند، والصين، وغيرها.. وإذن فالتطرف ظاهرة اجتماعية سياسية وليس ظاهرة دينية وإن كان الدين يستغل لإثارة المشاعر.

ولا يجد المستشرق الروسي البروفيسور (فيتالي ناوومكين) شيئاً غريباً في الدين الإسلامي أو المجتمعات الإسلامية عما هو موجود في الديانات والمجتمعات الأخرى، وإذا كان الغرب ديمقراطياً حقيقة فإن عليه أن يعترف بالحق في الاختلاف، وقبول الثقافة الإسلامية كما هي، والتعامل مع المسلمين وفق معتقداتهم، لأن نفى الآخر، ورفض الآخر، مما يتعارض مع الديمقراطية، فلكل مجتمع الحق في أن يعيish حسب قوانينه وشرائعه، والعلاقات الديمقراطية بين الدول تعني التعايش بين الثقافات المختلفة وليس فرض المعايير الغربية وحدها على العالم، وإدانة كل ما يخالف هذه الثقافة الغربية والحكم عليها بأنها متخلفة.

وفى تحليله لظاهرة الأصولية الإسلامية يرى المستشرق الروسى أنها تختلف من بلد لآخر بحسب التطور الاقتصادى والاجتماعى، ونتيجة لوجود فجوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء فى البلد الواحد، ووفقا لدرجة التطور الثقافى والاقتصادى الذى وصل إليه كل بلد. ومن أسباب التطرف التى لا يريد الأثرياء فى الدول الإسلامية الاعتراف بها، أن أموال الأغنياء فى العالم الإسلامى تستثمر فى الغرب وتسهم فى ازدهار الاقتصاد الغربى ورفاهية الشعوب الغربية، ولا توجه هذه الأموال للتنمية فى داخل الدول الإسلامية لرفع مستوى شعوبها وتحسين أحوالها..

أما التطرف فى العالم الإسلامى فإنه ينشأ وينمو- فى رأى المستشرق الروسى- لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية، والوسيلة الصحيحة للقضاء عليه هى إزالة هذه الأسباب.

المهم أن مدير مركز الدراسات الاستراتيجية ونائب مدير معهد الاستشراق فى روسيا فينالى ناوومكين يبرئ الإسلام من الإرهاب، ويعلن نتائج أبحاثه هو وزملاؤه، وتتلخص هذه النتائج فى أن الإسلام لا يعارض التقدم والتحديث، ولا يرفض التكنولوجيا الحديثة، ولا يحرض على العنف إلا لرد الظلم، واستعادة الحق المغتصب، وفى غير ذلك فهو دين سلام ودعوته الأولى هى الأخوة بين البشر على أساس أنهم جميعا من أب واحد وخالقهم إله واحد.



مستشرق روسى آخر هو البروفيسور الكسندر سميرنوف المتخصص فى الدراسات الإسلامية ينصف الإسلام ويدافع عنه ضد الذين يتهمونه بأنه دين التعصب والعنف، فيقول: فى البداية لا يجوز الخلط بين الأصولية الإسلامية والتعصب أو التطرف، فالتعصب أو التطرف يؤدى إلى الإرهاب والعنف حتى ضد المسلمين أنفسهم، وتنتشر هذه الظاهرة فى البلاد الإسلامية التى استعمرها الغرب أو التى فرض عليها الطابع الغربى قسرا وشوه أصولها الروحية وثقافتها، وشوه اقتصادها أيضا، ومثال ذلك إيران، ففى العقود التى سبقت ثورة الخمينى كانت إيران خاضعة للزحف الثقافى للغرب ولنظام بوليسى قمعى، وتبعية كاملة للولايات المتحدة وخاصة فى عهد الشاه رضا بهلوى، وتسبب الفساد السياسى والاقتصادى فى تدهور مستويات المعيشة وتبديد عائدات البترول فى أوجه الإنفاق السفيفه للامبراطور وحكومته، وكل ذلك أوصل الأوضاع إلى الثورة التى قادها رجال الدين، وانشغل رجال الدين بتصدير هذه الثورة إلى بقية الدول الإسلامية، وصارت فلسطين المحتلة تحتل مكانة خاصة فى السياسة الإيرانية بعد الثورة، وفى فلسطين ظهر التطرف الإسلامى كرد فعل على الإذلال القومى.

وخلاصة نظرية المستشرق الروسى الكسندر سميرنوف أن الإسلام كدين لا يتضمن دعوة لكرهية أصحاب الديانات أو الشعوب الأخرى، ولكنه يدعو إلى رفض الظلم ومقابلة العنف بالعنف، فهو

يدعو لسالة من يسالم المسلمين، ومحاربة من يحاربهم: ﴿فَمَنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٦١) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَلَقُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠).. وهذا يدل على أن كثيرا من الغربيين لم يفهموا قانون الحرب في الإسلام ولا مفهوم الجهاد الإسلامي، فهما في الأساس دفاع ورد على الاعتداء، وليس في الإسلام تحريض للمسلمين على المبادرة إلى العدوان على الآخرين، وعلى ذلك فإن مشروعية الجهاد قائمة على الدفاع ورد العدوان وإزالة آثار العدوان ليس إلا.



ومن الواضح أن الدارسين للإسلام في الغرب انشغلوا بظاهرة الأصولية الإسلامية وعلاقتها بالتطرف والإرهاب، ومدى تعبيرها عن المفهوم الحقيقي للإسلام، فالمستشرق الفرنسي دومينيك شوفالييه الأستاذ بجامعة السوربون يؤكد أن قوة الإسلام تكمن في أنه يمتلك برنامجا أخلاقيا، وأن مصطلح الأصولية هو في الأصل مصطلح غربى مسيحي، والظاهرة الإسلامية التي تسمى أصولية لا تشبه الحركة الأصولية المسيحية، فالظاهرة الإسلامية تقدم نفسها على أنها دعوة إلى العودة إلى الأصول، وهي بذلك ليست جديدة، فهي في الفكر الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، ويمكن اعتبار الشيخ محمد عبده ورشيد رضا من مؤسسي الأصولية، مع ضرورة الإشارة إلى الاختلاف بين معنى الأصولية الحقيقي ومعناها كما تقدم في الصحافة والإعلام في الغرب. فهي تقدم على أنها دعوة للجمود والتوقف عند الماضي، ورفض التجديد والتطور والتعامل مع الآخر بعدوانية.

الأصولية الإسلامية في رأى دومينيك شوفالييه لها أسباب ثقافية: هي الخوف من طمس الهوية الثقافية الإسلامية والدعوة إلى الحفاظ على هذه الهوية والتمسك بها. وبالإضافة إلى ذلك فهناك تحولات عالمية أثرت في المسلمين وطرحت عليهم سؤالا ملخصه: كيف يمكن للمسلمين والحضارة الإسلامية تحمل مسئولياتهما في هذا العالم الحديث بما يطرحه الدين الإسلامي من قضايا وضرورات جديدة؟.. والسؤال يتضمن التحدى الذى يواجه المسلمين: هل هم قادرون على التفاعل مع العالم والمشاركة فيه بفاعلية وبروح خلاقية دون أن يفقدوا هويتهم؟.. والصعوبة القائمة أن الاختراعات العلمية والتكنولوجيا ووسائل العلم الحديث تتضمن مؤثرات أخلاقية وتفرض القيم المتصلة بها، وهذا ما يجعل التيار الأصولي أمام تحديات يفرضها على سبيل المثال: التلفزيون، والسينما، والانترنت، والهندسة الوراثية، والاستنساخ، ونقل الأعضاء، وأطفال الأنابيب، واستئجار الأرحام، والقتل الرحيم، وعشرات المخترعات والقضايا والمشاكل التي تنتج عن التقدم العلمى والتكنولوجى فى الغرب. وقد حقق الغرب الانسجام بين هذه المخترعات والقضايا والقيم

الأخلاقية والروحية المرتبطة بها، لكن ذلك لم يتحقق في العالم الإسلامي بعد، وهذا ما يؤدي إلى القلق والتردد وإلى الرفض من بعض علماء الدين الإسلامي لكل ما يأتي من الغرب. لكن هذه المخترعات تفرض نفسها بعد ذلك، ويؤدي ذلك إلى وجود تناقضات تدفع فريقاً من المسلمين إلى التقوقع والتراجع والانسحاب فتظهر الدعوة إلى الهجرة في الزمان والمكان، وتظهر الدعوة إلى العودة إلى صور الحياة الأولى التي كان عليها المسلمون في السابق.

والإسلام - كما يقول البروفيسور دومينيك شوفالييه - دين قائم على الدعوة إلى الخير والعدل والتعايش مع الآخرين وتبادل المنافع معهم، ولا يظهر المتطرفون الإسلاميون إلا في مواجهة اعتداءات على المسلمين الفلسطينيين أو الأفغان أو الشيشان، وهكذا..

وفي نفس الوقت فإن الشعوب الإسلامية تدين الأعمال الإرهابية وترفض العنف وسفك الدماء. ويجب أن نعترف بأن الأصولية ليست في الإسلام وحده، وكذلك التطرف والعنف والإرهاب، فهذه الظواهر نجدها بين المسيحيين واليهود وغيرها، مع فارق جوهري هو أن المسيحية دين وليست دولة، فقد ولدت المسيحية في فلسطين من خلال مجموعة صغيرة حول المسيح - عليه السلام -، وكانت فلسطين مقاطعة صغيرة في الامبراطورية الرومانية، وبعد المسيح - عليه السلام - جاء القديس بولس وكان يعلن أنه مواطن روماني ولم تكن لديه فكرة التحول إلى دولة، وقد استمرت الامبراطورية الرومانية ثلاثة قرون تحولت الكنيسة خلالها إلى قوة إلى جانب الدولة، وتحالفت الكنيسة والدولة في عهد الامبراطور الروماني قسطنطين، ولكن كانت هناك دائماً مسافة بين الدولة والكنيسة ولم تظهر دولة دينية مسيحية. وفي الإسلام الأمر مختلف. فقد أسس الإسلام دولة في المدينة، ولم تكن فيها دولة قبل هجرة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، إذ كانت كل قبيلة وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية وكأنها دولة مستقلة لها قوانينها وحكامها، وعندما أسس النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - دولة في المدينة كانت له فيها سلطة سياسية كاملة إلى جانب السلطة الروحية دون تمييز بينهما، وكان هو القائد السياسي والعسكري والروحي الذي يقدم الحلول للمشاكل من كل نوع، ثم اختلف الوضع فيما بعد حين اتسعت الدولة وتعددت فيها الوظائف والمسئوليات، وظهر فيها التخصص. وقدم الاجتهاد حلاً جديداً للمشاكل الجديدة، وبالتالي ظهرت قوانين جديدة، وسار المسلمون على طريق الانتقال من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة بالمفهوم الحديث، وأصبحت لهذه الدولة علاقات بالدول الأخرى، ونشأت تحالفات وعداوات ليس للعقيدة الدينية دخل فيها، ولكن هناك فئة ظل يداعب خيالها حلم إعادة مجتمع المدينة - وهؤلاء هم الذين نسميهم أصوليين وأمثالهم موجودون في كل المجتمعات - حلم العودة إلى الماضي البسيط الجميل.. وهو حلم جميل، لكن تحقيقه مستحيل في عالم مختلف في كل شيء عن العالم القديم، ومن المستحيل إعادة العالم كله إلى القرون الماضية، وكذلك من المستحيل

فصل المجتمع الإسلامى عن العالم بحيث يتقدم العالم نحو الأمم ويعود المجتمع الإسلامى وحده إلى الوراء ليحقق حلمه السعيد.

هذه هى رؤية الباحث الفرنسى البروفيسور دومينيك شوفالييه الأستاذ بجامعة السوربون.



والبروفيسور (بيار تيبه) الأستاذ بجامعة باريس الأولى له دراسات أيضا عن الأصولية الإسلامية يتفق فيها مع من سبقوه فى أن من أسباب ظهورها ما تعرض له المسلمون من اعتداء ونهب فى فترة الاستعمار الغربى. وفى هذه الفترة شهدت المجتمعات الإسلامية تحولا عميقا فى العادات والأخلاق، فتغيرت الملابس والمسكن وحتى عادات الطعام وآداب المائدة، وهذا يعنى أن تحولا قد طرأ على الثقافة والحضارة الإسلامية بالتزاوج مع الثقافة والحضارة الغربية، ولم تشتد الدعوة إلى الأصولية إلا بعد الثورة الإيرانية. لكن قيام الدولة الإسلامية فى إيران لم يحقق الحلم بالقضاء على الفقر وتحقيق المساواة والرخاء والسلام، وكل حاكم ظهر بالدعوة إلى إقامة حكم إسلامى تحول إلى دكتاتور واستغل الإسلام ليحكم قبضته على الحكم ويعتبر الراضين له خارجين على الإسلام ويحكم عليهم بالكفر.

ويقول البروفيسور (بيار تيبه): إن هناك قوى فى الغرب تعمل على إثارة الخوف من المسلمين الغربيين وتدعى أنهم خطر على الغرب، وهذه هى دعوة الأحزاب المتطرفة فى فرنسا ودول أوروبا الأخرى، مع أن هؤلاء المسلمين الغربيين لا يمكن أن تكون لهم مقدرة على إقامة دولة داخل الدولة.. دول أوروبا دول علمانية تفصل بين الدين والعمل السياسى، وعلى ذلك فإن الأصوليين يمكنهم أن يمارسوا معتقداتهم الدينية، ولن يكون فى مقدورهم تحويل هذه المعتقدات الدينية إلى عمل سياسى، وبالتالي فإن وجودهم لا يمثل خطرا على الدولة والمجتمع، والخطر فقط فى بعض الدول الأصولية الخارجية إلى تغذية الإرهاب، كما حدث فى انفجارات سبتمبر ١٩٨٦ فى فرنسا، وكما حدث فى عمليات خطف الطائرات.

وعلى ذلك يحذر البروفيسور (بيار تيبه) من أن تتخذ دول الغرب مواقف من الإسلام قائمة على الخوف، وفى رأيه أن الإسلام دين لا يتعارض مع العلمانية، ولا يعادى الأديان الأخرى. وفى ظل دولة علمانية مثل فرنسا يمكن أن تتعايش كل الأديان دون مشاكل، وإن كانت الأصولية ترفض حرية الفكر وتفرض على أنصارها قوالب فكرية جاهزة، وتحظر عليهم ممارسة التفكير النقدي وهو جوهر التقدم فى المجتمع وفى الفكر وفى العلوم، فالتقدم مرتبط بالفكر النقدي الحر الذى لا يخضع لشروط مسبقة. ولعل أخطر ما فى الحركة الأصولية هو الجمود، وهو جمود غير مبرر فى الإسلام. ولكن الأصوليين لا يدركون الفرق بين حقيقة الإيمان والحقيقة العلمية، أى الفرق بين

نتاج العقل ونتاج النقل، كما يقول علماء الدين الإسلامي، فالأصوليون لا يدركون الفرق بين هاتين الحقيقتين، وأنه لا تعارض بينهما وفي نفس الوقت يجب عدم الخلط بينهما ولو أدركوا الفرق بين هاتين الحقيقتين لزال التناقض الذي يولد الفجوة مع الغرب ويؤدي إلى الجمود والتعصب والتطرف وكل أشكال الخروج على طبيعة الإسلام.

هكذا يعلن هؤلاء المستشرقون تبرئة الإسلام من تهمة الجمود، كما أعلنوا من قبل تبرئته من تهمة الإرهاب.



ويؤكد هذا المعنى أيضا المستشرق الفرنسي (بيار دندره) الذي أعلن في أحاديثه الصحفية وأبحاثه أن الإسلام لا يمثل خطرا على العالم، كما يروج البعض، وأن التطرف في جميع الديانات - وليس في الإسلام وحده - هو الخطر، والأديان في جوهرها دعوة لالتقاء البشرية تقودهم إلى التفاهم وليس إلى الاقتتال، فلا يعقل أن يبعث الله رسله ليقودوا البشر إلى الحروب بسبب اختلاف عقائدهم الدينية وعلى الرغم من اتفاهم على عبادة إله واحد. وإذا كان الغرب يحارب التطرف الإسلامي فإن عليه أن يحارب التطرف المسيحي والتطرف اليهودي والتطرف في جميع الديانات الأخرى غير السماوية وفي جميع المجتمعات في العالم.

ويقدم (بيار دندره) في أبحاثه الأدلة على أن أوروبا استفادت كثيرا من علوم وآداب وثقافة المسلمين، وذلك في كتبه ومنها (الإسلام والمسلمون اليوم) و(الشرق الأدنى)، وكذلك في أبحاثه التي يجريها في المعهد الفرنسي للدراسات العربية والمحاضرات التي يلقيها في الجامعات الفرنسية، ويتصدى فيها لحملة الإساءة إلى الإسلام في فرنسا وبخاصة في الأوساط الأكاديمية وبين المثقفين.



وفي بولندا كانت (يوانا فرونتسكا) من المدافعين عن الإسلام تطوعا منها للدفاع عن هذا الدين الذي رأت أنه يتعرض لحملة ظالمة وتُلق له اتهامات لا أساس لها من الصحة، و(يوانا فرونتسكا) حاصلة على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، وكانت رسالتها للدكتوراه عن التصوف الإسلامي عن محيي الدين بن عربي الفيلسوف الصوفي الكبير، وقد أصبحت سفيرة لبلادها في القاهرة وتحدثت كثيرا عن تقديرها للإسلام كعقيدة ومنهج حياة، وقالت: إنها كباحثة وسفيرة درست الإسلام وقضاياها المادية والروحية وأنها تحترم هذا الدين على رغم أنها لم تعتنق الإسلام، لكنها عاشت سنوات طويلة في دراسة اللغة العربية ودقائقها، وتخصصت في الفكر الديني في الإسلام والحضارة الإسلامية، وارتبطت بالتصوف الإسلامي وبخاصة ابن عربي، والغزالي، وابن الفارض،

ورابعة العدوية، وقد اكتشفت بعد هذه السنوات من الدراسة أن بين الأديان السماوية نقاطا مشتركة حول المبادئ الروحية والأخلاقية والقيم العليا.

وقالت أيضا: إنها بدأت بدراسة اللغة العربية بجامعة وارسو، وبعد ذلك وجدت نفسها تنجذب لدراسة العقيدة والفلسفة الإسلامية، والتصوف والأدب العربي، ووجدت في ذلك عمقا كبيرا، وكلما تقدمت في دراستها وجدت نفسها تتقدم نحو دفعات روحانية تصل بينها وبين الله في مراحل فكرية وروحانية، واكتشفت في التصوف الإسلامي نموذجا رفيعا للشفافية والتسامي.

وفي حوار لها مع الأستاذ محمد حسين أبو العلا قالت: إن ابن عربي كان يمثل بالنسبة لها اكتشافا رائعا كرست له حياتها لتفهم فكرته المحورية عن وحدة الوجود وهي فكرة صعبة للغاية، وإنني احترم وأقدر أفكاره وأشعر بتجاذب هائل مع فكره، أما بالنسبة للإمام أبي حامد الغزالي فإن أعظم كتبه كتابان هما: (إحياء علوم الدين) لأنه استخدم فيه مبدأ الاجتهاد القائم على الرؤية النقدية وكتابه (مشكاة الأنوار)، لأنه يتميز بجاذبية خاصة في تفسيراته لمعاني الإشراق الإلهي حين يعرض لشرح آية النور في سورة النور، وقد قمت بترجمة هذا الكتاب.

وتحدثت السفيرة البولندية المستشركة (يؤانا فرونتسكا) عن المد الإسلامي في أوروبا عموما وبولندا خصوصا فقالت: إن هذه ظاهرة ملحوظة، وبولندا نموذج طيب للمد الإسلامي وفيها أعداد هائلة من المسلمين، وبعضهم حاز شهرة واسعة في الثقافة والإعلام وهذا ملحوظ في كثير من دول أوروبا مما فتح الباب لحوار مفتوح ومتصل في أوروبا عن الإسلام.

ومن بولندا إلى بلجيكا حيث الهجوم على الإسلام والدفاع عنه في ساحة واحدة، وحيث يعيش ربع مليون مسلم ومع ذلك لم يتم الاعتراف بالإسلام والمسلمين. ومنذ فترة قصيرة سمحت الحكومة البلجيكية بتشكيل لجنة لتمثيل المسلمين لدى الحكومة تقتصر مهمتها فيما يتعلق بتدريس الدين الإسلامي لأبناء المسلمين في المدارس البلجيكية وزيارة المسلمين في السجون والمستشفيات، كما أنشئ مركز ثقافي إسلامي في مسجد قديم في بروكسل يشرف عليه الدكتور (فندن بروك) ويقوم بتوزيع ترجمات معاني القرآن على المساجد وعلى المسلمين باللغات الأوروبية وخاصة الفرنسية والإنجليزية، وأسس معهدا للعلوم الإسلامية بمساعدة الأزهر ورابطة العالم الإسلامي، كما نظم انتخابات بين المسلمين لتكوين المجلس الأعلى للمسلمين لم تعترف به الحكومة.

وقد بدأ تدريس الدين الإسلامي لأبناء المسلمين في بلجيكا منذ عام ١٩٧٦ بشكل غير رسمي، وأخيرا شكلت الحكومة لجنة من ١٧ عضوا للمشاركة في إعداد المناهج والمدرسين لتدريس الدين الإسلامي، ووافقت على أن تُخصَّص ساعتان في الأسبوع لهذا المنهج، وتعتبر هذه خطوة نحو الاعتراف الرسمي بالإسلام في بلجيكا.

وفى رأى الدكتور (فندن بروك) أن الوحدة الأوروبية سوف تلعب دورا فى تحقيق التقارب بين المسلمين فى أوروبا كلها، وسوف يكون ذلك دعما لوضع المسلمين فى المجتمع الأوروبى يساعد على وقف تيار الكراهية والإساءة إلى الإسلام، وإن كانت المشكلة - فى رأيه - أن معظم المسلمين فى أوروبا جاءوا عمالا وليس لديهم ثقافة دينية كاملة ولا يعرفون البلاد التى يقيمون فيها ولا يتفاعلون مع المجتمعات الأوروبية، ولا يتقنون لغاتها، وهذا ما يجعل المسلمين حتى الآن مجرد تجمعات من المهاجرين الغرباء فى بعض الدول الأوروبية، وتزداد مشكلة جهل معظم المسلمين بالإسلام فى أوروبا لدى أبناء الجيل الثانى والجيل الثالث، فهؤلاء الأبناء يتعاملون مع لغاتهم الأصلية وثقافتهم الدينية، كما لو كانوا أجنب، وهذا عامل مهم يزيد من صعوبة تحسين صورة الإسلام، وإن كان المسلمون قد نشطوا فى إقامة المساجد إلا أن ذلك وحده لا يكفى.

وينتقد (فندن بروك) المستشرقين، ولكنهم - فى رأيه - أفضل من الذين يكتبون عن الإسلام فى الصحف الغربية، فالمستشرقون - على الأقل - درسوا الإسلام، ومنهم من يكره الإسلام ويكتب ضده بنظرة متحيزة، كما أن منهم من يدرسه بمنهج علمى محايد وموضوعى، ومنهم من اعتنق الإسلام، ومنهم بقى على دينه ولم يطعن فى الإسلام، وعموما فإن النظرة إلى الإسلام فى الغرب تحسنت عما كانت عليه منذ قرن، وكثير من الغربيين يدخلون فى الإسلام ولم يكن ذلك شائعا من قبل، كما هو الآن، وخصوصا فى ظل ما يسمى (موت الأيديولوجيات)، فالغربيون فى عمومهم تخلوا عن الأيديولوجيات وبيحثون عن الحلول العملية لمشاكلهم الاجتماعية والحياتية، وهذا ما يجعل للإسلام جاذبية خاصة لأنه يقدم لهم الحلول التى يبحثون عنها.



يتفق المدافعون عن الإسلام فى الغرب بأن مهمتهم تُواجه دائما بحملات هجوم تستغل العمليات الإرهابية، وغياب الديمقراطية فى الدول الإسلامية، وإعلان بعض علماء المسلمين بأن الإسلام يتعارض مع الديمقراطية، كما تستغل أوضاع المرأة المتدنية فى بعض المجتمعات الإسلامية.

فى معسكر المدافعين عن الإسلام نجد كاتبا مثل دينس ماكثين الذى كتب مقالا فى صحيفة الباييس الأسبانية بعنوان (تحدى الديمقراطية الإسلامية) قال فيه: (إن عام ١٤٩٢ كان عام ظلام فى أوروبا، لأنه العام الذى قامت فيه الحكومة الملكية الأسبانية بطرد المسلمين واليهود من وسط أوروبا باسم الدين المسيحى، وكانت هذه قمة الأصولية الدينية، ومع ذلك فقد عاش اليهود فى سراييفو وسالونيكيا متمتعين بالأمن والحرية تحت الحكم الإسلامى، والآن تسنح لأوروبا الفرصة لتصحيح أخطائها التاريخية، وذلك بالاعتراف بأهمية الميراث الإسلامى فى حضارة أوروبا، ولقد تمثلت إبداعات أوروبا الكبرى فى القرن العشرين فى تحول الأحزاب الدينية الرجعية التى

تحكمت في الفكر المحافظ قبل عام ١٩٣٩ لتحل محلها الأحزاب الديمقراطية المسيحية التي استطاعت التوفيق بين المعتقدات الدينية والسياسة العلمانية الديمقراطية. وسيكون إنجازا كبيرا إذا استطاع المسلمون التوصل إلى هذه المعادلة التوفيقية وليس في الإسلام ما يحول دون ذلك، وليس في الإسلام ما يحول دون ذلك - كما يقول دينيس ماكثين - إذا نجحت الدول الإسلامية في نظم حكم ديمقراطية في إطار إسلامي تلبى حاجة الناس إلى هوية دينية وتضع ذلك في إطار الحقوق الديمقراطية، والمشكلة أن بعض الغربيين يطالبون المسلمين بإقامة نظم ديمقراطية على النموذج الغربي، ويجب ألا ننسى دعوة الزعيم الفرنسي شارل ديغول لأوروبا بأن تعترف بذنوبها نحو الإسلام واليهودية وهما ينتميان إلى إبراهيم أبو الأنبياء - عليه السلام -، ويجب أن تدرك أوروبا أنها لم تعد كيانا دينيا واحدا، ففيها ملايين يعتنقون ديانات أخرى غير المسيحية، وهذا ما يجعل الحرية الدينية وحرية العبادات أمرا لا مفر منه، وفي نفس الوقت فإن على أوروبا أن تتصدى لتيار الكراهية للإسلام الذي يغذى سياسات الرفض لكل ما هو أجنبي التي تظهر في الحركات الراديكالية بين الشباب وفي الأحزاب العنصرية التي تجد أنصارا كثيرين، بينما تقضى الحكمة والواقعية أن تعمل أوروبا على إدماج المسلمين في الحياة السياسية والنسيج الاجتماعي).



وتتزايد الأصوات المدافعة كلما تزايدت حملة الكراهية على الإسلام وعلى سبيل المثال فإن كاتبها بريطانيا مرموقا هو فيليب فيرناندو كتب مقالا في صحيفة الصنداى تايمز بعنوان (الإسلام صديق لأبد من الاحتفاظ بصدقاته) انتقد فيه الصحافة الغربية التي صدرت في اليوم التالي للهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك بعناوين مؤداها أن هذا الهجوم حرب على الغرب، وأن الذين شنوا هذه الحرب ينتمون إلى حضارة معادية! واعتبر بعض الكتاب والسياسيين في الغرب أن هذا الهجوم تعبير عن حرب عالية ثقافية جديدة يقف فيها الإسلام ضد الغرب، وأن صدام الحضارات حل محل صدام الأيديولوجيات، وقال البعض: إن هذا الهجوم حرب يريد المتعصبون بها إرغام الغرب على الإيمان بمهاتراتهم ودعاوهم الدينية التي يستخدمونها كقناع يحجب أعمالهم الوحشية، ويغوى مرديهم بالقيام بالزيد من الهجمات الانتحارية، بينما الحقيقة أن كراهية الإرهابيين لأمريكا لا علاقة لها بالدين، والحرب التي يشنونها ليست حربا دينية بأى معيار، وكل الدول والشعوب الإسلامية تقريبا استنكرت هذه الأعمال الوحشية وأدانت مرتكبيها، ولو ألقينا اللوم على الإسلام فسوف نخسر ود المسلمين، ولو ضيقنا عليهم الخناق ووضعناهم في وضع معاد فسوف ينقلب أصدقاؤنا المحتملون إلى أعداء ويصبحون مصدر خطر علينا، فإن حرب الحضارات لا وجود لها إلا إذا أعلنها الغرب.

ويرى فيليب فيرناندو أن المؤرخين يبالغون في أثر الحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين وبخاصة الحروب الصليبية، ويرى أنها لم تكن في حقيقتها حروبا دينية، ولم تكن بسبب الصراع على العقائد، ولكنها كانت لأسباب اقتصادية وسياسية.. وكانت حربا استعمارية استخدمت الدين وسيلة للشحن العاطفي وإثارة المشاعر في الغرب لتأييدها، ولم تكن الحروب في ذلك العصر بين المسيحيين والمسلمين فقط.. بل كانت أكثر الحروب داخل العالم المسيحي.

ويبدى فيليب فيرناندو دهشته للتركيز المبالغ فيه على الصراعات بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي والإغفال المتعمد عن نماذج التعايش المسيحي الإسلامي الذي كان في الدولة الإسلامية في دمشق وبغداد وقرطبة، وكذلك الإغفال المتعمد لفضل الحضارة والعلوم الإسلامية على النهضة الأوروبية، وأيضا الإغفال المتعمد لنموذج التعايش بين المسلمين والمسيحيين في إطار هوية وطنية واحدة، وحقوق متساوية كما في مصر، وإذا كانت الدول الإسلامية لم تصل إلى الدرجة المأمولة في نموها الاقتصادي، والديمقراطي وتطورها الثقافي والاجتماعي، فإن لذلك أسبابا يرجع معظمها إلى الاستعمار الغربي، وفي نفس الوقت يجب ألا نغفل أن معظم الدول الأوروبية مرت بهذه المرحلة حتى وقت قريب.

ويمضى فيليب فيرناندو خطوة أوسع فيقول: إن الإسلام يسهم اليوم في الحضارة الغربية كما فعلت المسيحية من قبل، فقد كانت المسيحية عقيدة تعتنقها الأقلية من ذوى الأصول الشرقية، مع تزايد المهاجرين في الامبراطورية الرومانية، واليوم تشارك أعداد من المسلمين في المجتمعات الغربية ولهم إسهاماتهم في تقدم الغرب وعلى الرغم من أنهم يمثلون أقلية إلا أن تأثيرهم واضح ومتزايد.

ويعلل فيرناندو رأيه بأن الحضارة الغربية تستوعب الآن ديانات غير سماوية مثل البوذية والهندوسية وهي تنمو نموا سريعا في الغرب، ويقال إن بريطانيا فيها من كهنة الهندوس أعداد تقارب أعداد الكهنة الإنجيليين، فلماذا لا يتسع المجتمع الأوروبي للمسلمين وأنتمهم؟.. وما دام المسلمون في الغرب ملتزمين بالتعايش والتفاعل مع المجتمع المدني الأوروبي، وبالقانون الأوروبي، وبالتسامح مع أصحاب الديانات الأخرى، وبممارسة الديمقراطية فكيف يقال إن وجودهم في الغرب خطر على الحضارة الغربية؟.. إن الانذار عن الخطر الإسلامي انذار كاذب!